
12
حروف
قصص
الهيئة العامة لقصور الثقافة
قريتنا تصنع
أسطورة
محمود أبو راجح
892
R1

إهداء ٢٠١٥
الهيئة العامة لقصور الثقافة
جمهورية مصر العربية

قريتنا تصنع أسطورة

قصص

محمود أبو راجح

وزارة الثقافة



سلسلة
حروف
تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
سعد عبد الرحمن
أمين عام النشر
محمد أبو المجد
الإشراف العام
صبحي موسى
الإشراف الفني
د. خالد سرور

• قريتنا تصنع أسطورة
• محمود أبو راجح
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2013م
5ر13 x 5ر19 سم
• تصميم الغلاف: د. خالد سرور
• المراجعة اللغوية:
محمد منصور
• رقم الإيداع: ٧١٤٤/ ٢٠١٢
• الترقيم الدولي: 4-302-718-977-978
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالي: 16 شارع أمين سامي - قصر العيني
القاهرة - رقم بريدي 11561
ت: 27947891 (داخلي: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

(12)

تعنى بنشر الأعمال الإبداعية
لمبدعي مصر المتحققين

• هيئة التحرير •

رئيس التحرير
سيد الوكيل
مدير التحرير
سعيد شحاتة
سكرتير التحرير
محمود أنور

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه في المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابي من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

قريتنـــا تصنع أسطـــورة

إهــداء

إلى:

أمى

أخى

أبى

ابنى

الشجر المثمر طوال العمر.

الخــوف

ها هى زوجته تأتى إليه بسبب يعلنه أو يترك لها إعلانه.. لماذا لم ينجب إلى الآن؟ دائمًا ما كانت ردوده واهية، غير أنها مقنعة.. ورغم حنينه للولد، فإنه يؤمن بهذه الردود:

كل شىء بأوان..

(اللى ربنا يريده هو اللى هيكون، يعطى لمن يشاء ذكورًا يا سيدى، مافيش حاجة بإيدينا)..

لكن زوجته أتت إليه بقصة عليه أن يحبكها وتكون رده على الكافة..

ذهبت إلى الجانب الآخر من النيل، حيث المرأة التى إن أخبرتها باسمها واسم أمها، تخبرها بكل ما مر عليها، ذهبت إليها طمعًا فى أن تجد عندها الحل، فتكون امرأة كاملة، وهو يعرف أنه من المحال

أن ينجب؛ أخبره الطبيب بذلك فى المدينة، أكمل له الآية التى كثيراً ما استشهد بها..

"ويجعل من يشاء عقيما"..

عندها شعر للمرة الأولى بإيمانه يتزعزع، فرد بعفوية:

- والمشيئة دى ماجاتش غير فيا؟

- أنت هاتكفر يا حاج! استغفر ربك.

- أستغفر الله العظيم.

ومن يومها وهو يتضرع إلى الله فى كل صلاة أن يغفر له سوء أدبه معه.

لم يخبر أحداً بتلك الزيارة ولا التحاليل، حتى زوجته، وليريحها، سمح لها بأن تصطحب زوجة أخيه وقطعة صغيرة من ملابسه كأثر منه تقرأ عليه تعاويذها، وتستبين طالعه وماضيه.

لم يصدق أبداً فى أقوالهم إلا هذه المرة، فها هى المرأة المباركة أسرت إلى زوجته:

- راجلك من زمان الخوف تبّت على قلبه، وده اللى حايشه عن الخلفة.

- من زمان إمتى؟

- من قبلك بزمن.

- ومافيش حل يا ستنا؟

- اعرفى خوفه كان ليه، فكى عقدة لسانه وربنا يسهل.

ما الذى يمكن أن يحكيه؟ حكاية تدخل أدمغة الكافة بما فيهم

زوجته؟ أيقص لهم عن الجنيّة التى تتغير بتغير النداء عليها؟ كنت أسير بجوار المقابر، ورأيت قطة، فناديتها، فإذا بها تتحول إلى حمار، فـ،

لا.. لا يمكن أن يصدقه أحد، منذ ولادته وهو يستمع إلى هذه القصة؛ عليه بقصة أخرى، أخرج علبة التبغ الفضية، وتأمل السبع المرسوم بارزًا عليها، والذى يشبه السبع الموشوم به رسغه، أخرج الدفتر، استل منه ورقة، أهرق عليها حفنة من التبغ، وضم عليه طرفى الورقة، ثم مررها بلعابه حتى التصقت، وضعها فى فمه من الجانب الأرقّ، وأشعل عودًا من الثقاب، وسحب النَفَس الأول، وكعادته منذ تعلم التدخين لا بد من أن يفرك عينه من الدخان جراء النفس الأول؛ غامت رؤيته قليلا وتذكر "التوّاه"، هذا الذى ينادى الشخص باسمه، وبصوت يعرفه، فيظل طوال الليل يجوب خلفه بدون أن يصل إليه.

القصة مكررة، ولا ترقى لأن تكون سببًا يستحيل معه الإنجاب؛ لا بد من قصة يعرفها الكافة ولا يدققون فى دوره الفجائى فيها، لا بد من أن تكون الحبكة من إقحامه في الجزء الرهو داخل القصة.

مع النفس الثانى ابتسم لحلقات الدخان التى راوغها فلم تدمع عيناه..

- هيــــــه!

قالها معاتبًا نفسه:

- إزاى أقول إنى خفت؟ ليه؟ هو أنا باخاف؟

القصة تتبلور فى ذهنه، تتشيا، يمكن اختصارها فى كلمة واحدة "الغريب".

والغريب رجل غامض تتناثر حوله القصص من دون تأكيد أو نفى. يقطن القرية من زمن قريب، يقال -فى إحدى القصص الكثيرة التى حكيت عنه- إنه قتل رجلا من عائلة كبيرة وهرب إلى القرية وهم يراقبونه.

وكثيراً ما خلط الناس بينه وبين الغريب فى الظلام؛ لاحظ ذلك من إلقاء أكثر من شخص السلام عليه مصحوبًا بالاسم:

- مساء الخير يا غريب.

وكان لا يعطى الأمر اهتمامًا، اكتملت القصة تمامًا، جاءوا ليقتلوا الغريب تحت جنح الظلام، والتبس الأمر عليهم فأمسكوا به وكمّموه وخرجوا به من القرية، وفى الطريق إلى قريتهم كشفوا وجهه وتركوه.

سيقول البعض:

- انت ماقلتش ليه إنك مش هو؟

ويكون الرد جاهزًا:

- مرعوب يا اخواتى.

لا غيرها هذه القصة تصلح لأن تكون خاتمة فلا يذكر أمر الإنجاب مرة ثانية!

رهانات خاسرة

هل يعقل؟

أمن المتخيل أن يحدث ما حدث؟

وكيف لها أن تصدق؟

هو.. هو رجلها؟

يتجاهلها؟

يمر من أمام غرفتها.. أخجل ما يمنعه أن ينظر إليها؟ أم هى الرغبة التى ماتت؟

وهل ما مات حقًا هو الرغبة فيها فقط؟ أم أشياء لا يمكن أن تبوح بها حتى لنفسها؟

أهى الرغبة تلك التى تذكرها فيهتز قلبها كطائر؟

كانت لها أيامها، وهى.. هى دون غيرها من خطبت له الأخرى..

كانت قد قرأت فى عينيها سكينة وبؤسًا.. بؤسًا خلفه جهل وفاقة.. بؤسًا كان يعصر قلبها. ذهبت إليها حين ذهبت إلى الطبيب، نامت على السرير الطبى، رفع سماعته وسكت طويلا، غير أنها عرفت أن لا فائدة، قرأتها من هزة رأسه وصمته.

كيف شعرت بحركة الجنين فى أحشائها؟

كيف كذبت بطنها عليها؟

فى الطريق إلى الطبيب اشترى لها كل ما قابله من فاكهة. ارتسمت ابتسامته فوزعها على الخلق وفاضت.

لملمت جسدها المكشوف وخرجت.

شىء ما منعها من أن تمد يدها إلى الفاكهة "تلك التى رقدت فى أكياسها الورقية".

لم تكن لها، بل لابنه الساكن في أحشائها. فلمن تكون إن لم تكن له؟

وهو لم يعر الأمر اهتمامًا. لم يسألها عن فاكهته، وكأنه اتفاق غير مشروط بينهما. ألا يأتيا على سيرته. اتفاق وثقه الصمت بينهما. خلعت ملابس خروجها وألقت بجسدها فوق الفجوة السريرية التى خلفها جسده وكأنها تودع هذا الجسد للمرة الأخيرة.

زوجتا أخويه لم تجرؤا حتى على سؤالها أو سؤاله. مرقت إلى بيتها "بيت غريمتها"، قالت بهدوء:

– ليس لى سواه، ولا أرضى أن أقتل حلمه.

يتوق إلى الولد، وأنا أتوق إلى الرجل الذى كانه، أعطيه الولد؛ يعطينى الرجل.

قالت كل ما يمكن أن يقال. وقالت أمها:

- هي خادمتك؛ أولادها أولادك.

كلام منمق وامرأة ناعمة الحديث.

في آخر الليل بكت. لم تبك على نفسها أو بوار زرعها، إنما بكت عليها.

حدثته في الأمر، لم يرحب، ولم يمتنع، وهي تعرفه؛ يحلم بالولد، يعرف اسمه قبل أن يأتي، أعد له مراكب، عربات، مسدسات، هي ألعابه. أعد كل ما يمكن أن يعد للولد الذي هو آت لا محالة.

هي تعرفه، كم من مرة لاحظت حنينه للولد؟ مئات المرات، آلاف!

كان يأخذ أبناء أخويه يبيتون عنده في غرفتها، في المسافة التي بينهما. أكان تلميحاً لها بأن ما بيننا هو الولد؟

هي تعرفه؛ يحبها. أخبرها بذلك، وهو لا يكذب أبداً.

الأخرى تحمل في بطنها ابنه، والأكياس الورقية ليست لها، بل للابن الساكن في أحشائها.

هي الآن لا تعرف إلا نظرة التحدي من الأخرى، ونظرة الشفقة من زوجتّي أخويه، الكل في انتظاره، حتى هي في انتظاره.. تحلم أن يكون ابنها.. عتّقت له ما استطاعت من أمومة حرمتها.. أمومة ميثاقها الأحضان وحواشيها اللهفة والعشق.

حاكت على قدر ما تستطيع ملابس للآتي.. هو ابنها، لكن أمه التي أبكتها تنظر إليها بتحد، وهو لا ينظر إليها. ترى ما الذي فعلته له؟ ألم يقل إنه يحبها حتى ببطنها البوار؟

هي اشترت كتاكيت صغيرة تصلح للذبح في الميعاد.. في هذا اليوم بالذات.. اليوم الذي لم يعرها فيه انتباهًا وضعت كتاكيتها في كرتونة، ومعهم وضعت كتكوتًا صغيرًا خرج من تحت دجاجة لها. هم للآتي، وقف عليه.

نظرات زوجتيّ أخويه تحولت للعداء. هي لم تصدق. هم في الغالب معها، تعرفهم ويعرفونها، تقاسموا كل شيء حتى ثياب الخروج. يمر دون أن يلقي عليها تحية وقد أعدت لابنه/ابنها، ولزوجته محض اختيارها، ما أعدت.

عليه أن يعرف أنها لا تلمه. ستقول إن فاكهة الغرفة الأخرى ليست لها، إنما لمن بأحشائها. ستقول إنها تنتظره، وهو يعرفها. تسمع صوته ينادي أخويه. يتهامسون في الغرفة الأخرى، تنضم إليهم زوجتا أخويه.

طوال عمرها لم تتمن أن تتنصت مثل حالها الآن. الكلمات تصل إليها مهشمة عن "ظلم.. وننتظر.. ونرى.. اتهام بعمل سحر حتى لا تتم الولادة.. والأخرى تقسم وتهدد بأنها لا محالة تاركة المنزل".

دخلت غرفتها، سحبت بابها، كل الكلمات التي وصلت إليها كانت عليها لا شك. هي من اختارتها وأتت بها إلى هنا، وهي الأخرى من تحيك الآن لتخرجها من هنا. عليها ألا تتعجل؛ ما وصل إليها من هشيم الكلام لا يثبت ما يدور برأسها.

رفعت غطاء الكرتونة وألقت بقبضة من السمسم إلى كتاكيتها. هجمت الكتاكيت عليه. الكتكوت الصغير لا يصل إلى الحبات، كلما

اقترب تنقره الكبيرة منها. شعرت بعطف أمومي تجاهه. لا تعرف لماذا قارنت بينها وبينه. يشبهها تمامًا، ينقره الكافة. ألقت بقبضة أخرى. هذه المرة تحرك الكتكوت الصغير بعزم إلى الحبات غير عابئ بما يلقاه من نقرات، وهي تهللت لذلك فرأته فارسها وشبيهها. بعد أن التهموا حبات السمسم كانوا جميعًا ينقرون حواف الكرتونة بشكل غريزى، ويا هول ما رأت! كان الكتكوت الصغير كلما نقر خلّف بقعة دموية على جدار الكرتونة.

ارتعش قلبها. ألقت بقبضة ثالثة بثبات أكثر، تقدم الكتكوت الصغير إلى الحبوب، كانت حربًا مهولة بين العزيمة المطلقة والقوة المفرطة.

الحوار دائر فى الغرفة الأخرى. تحول الهمس إلى صوت عال. أصوات مبحوحة أقرب منها إلى الحشرجة. فتح الباب ومعه سيل من الاتهامات بأنها لا تريد للآتى أن يأتى. أيقنت بضعف حجتها فى مواجهة المكيدة المدبرة، فقد أعلنوا أنهم وصلوا إلى السحر المخبوء تحت عتبة باب الأخرى، واسمها مكتوب عليه.

أيقنت وأنها لا بد من أن تقاوم، مع علمها المسبق بالهزيمة. قفز فارسها إلى رأسها فقررت المقاومة، جرت إلى غرفتها، وضعت ثياب الخروج على عريها، انطلقت اثنتا عشرة يدا باتجاهها، دفعوا الباب فسقط مرتطما بالداخل، هجموا عليها، قادوها للخارج، أمسكت بكل ما وقعت يدها عليه.. السباب والقوة المفرطة وقرار داخلى بالمقاومة.

عندما تمكنوا من جرها لمسافة أخيرة وقعت عينها على الكرتونة،

فى لحظة خاطفة رأت فارسها ملقيًا على أرضيتها، وعدد من الكتاكيت يقف على جثته، انهارت تمامًا، للمرة الأولى شعرت بأنها لا بد من أن تفتح عينيها لتحتضن التفاصيل الصغيرة حتى المتناهية فى الصغر، فهى لحظتها الأخيرة فى هذا المكان الحبيب.

خالتي.. "أم سيد"

قالت جدتى وهى تغمز بعينها لى:

- نادى على خالتك "أم سيد".

- حاضر.

انطلقت وأنا أقلد صوت الأتومبيل، مستحضراً في ذهني حركات السائق، التى لم أرها إلا مرة واحدة. وبالعادة انخفضت بجذعى أمام البيت الواطئ الذى تسكنه الخرساء، *"اللى طوبتها ماتخيِّبش"*، وعندما شعرت بالأمان تناولت حجراً وألقيته ناحيتها؛ لم تعرنى كثير انتباه، إلا أن جدتى تقول: "بتخزن للى يئذيها زى الجمال".

وقفت أمام عتبة الباب أنادى بأعلى صوت:

- خالتى "أم سيد".

- يا خالتى "نجيحة".

فتحت الباب نصف فتحة وطلّت خالتى "نجيحة". عندها عرج خفيف فى ساقها اليسرى. يميل جسدها بثقله إلى هذه الناحية. عينها اليسرى نصف مغمضة، ويدها اليسرى ترتعش. تقول النسوة إن الجنيات أمسكنها من جنبها الأيسر وهى تغسل أوعيتها على حافة الترعة، ولولا أنها تذكرت الصمديّة ما تركنها أبداً..

- مين؟ أنت يا ريحة الحبايب!

كمَ أحب هذه المرأة؛ لم أذهب إليها من دون أن تمنحنى خبة فاكهة..

- ستى عايزاكى.

-حاضر؛ مسافة السكة حاكون عندها. اسبقنى انت.

أطلقت أتومبيلى، وتذكرت الخرساء فوقفت منتظراً خالتى "نجيحة" حتى أمسك بيدها، وتساءلت: لماذا تسخر منها جدتى؟ ولماذا ترسل فى طلبها وتجلسها عن يمينها، حيث إنها بطبيعتها تميل بناحيتها اليسرى، والتى تمثل يمين جدتى. تقول جدتى إنها، بذلك الوضع، خير من يفضى بسر.

لا أعرف فى حديثها ما يثير السخرية، فهى لا تتكلم إلا عن ابنها الأستاذ "سيد" "اللى علمته أعلى علام من عمرها وتعبها"، وقد منّ الله عليه بالوظيفة، "ألف روح تحت إيده، لو التفت الدنيا تضرب تقلب".

تتكلم عنه فتتفتح الدنيا فى وجهها، حتى عينها المعطوبة، وتقص كثيراً، وجدتى تغمز لنا.

الأستاذ "سيد"، سكرتير فى المدرسة الابتدائى، يجمع المصاريف فى أول العام، وشهادةً لله لم يطلب منى أبدًا كما يفعل مع الآخرين.

غير أنها تقول إنه أهم من بالمدرسة، حين يلمحه الناظر يخفض عينه ولا يتجرأ بالفتوى فى وجوده. ويصر الأستاذ "سيد" على توزيع الوجبة المجانية بيده، ولا يسمح لأى عامل بأن يساعده، فهو، على حد تعبيرها، يخشى أن يظلم أى "عيل"، وكل عام يأتى المحافظ إلى القرية، ولا بد من أن يزور المدرسة. يتوه الناظر ويظل يسير خلفه يستعطفه:

– خليك جنبى يا أستاذ "سيد" فى اليوم ده.

وحين تلمس قدم المحافظ أرض المدرسة يتمكن منه عفريت، فلا يسأل إلا عن الأستاذ "سيد"، وعينه تبحث عنه فى كل مكان، ولقد أسرّ له المحافظ ذات مرة:

– أنا يا "سيد" يا ابنى لو بإيدى أختار محافظ مكانى، ويكون قلبى مطمّن، مش هالاقى غيرك.

ويصادف الأستاذ "سيد" دائمًا يوم زيارة المحافظ، تقطيع جبنة الوجبة حتى يأكل العيال فلا يأبه بمحافظ أو غيره.

– يا ناس أنا فى إيدى شغل؛ أسيبه ليه؟ آخد تصويرة مع المحافظ واللا غيره ليه؟

– طيب المحافظ يقدر يستنى لما أخلص، لكن الغلابة دول هيقولوا للجوع استنى لما "سيد" يقابل المحافظ؟

كلمته زى السيف؛ مايرجعش فيها أبدًا.. هكذا تحكى خالتى "أم سيد" عن ابنها اسم الله عليه الأستاذ "سيد"، وبعد أن تغادر تودعها جدتى ثم تنفجر متمايلة من الضحك:

- "سيد" ابنها واخد دبلون فى سبع سنين. الله يحظّك يا "نجيحة".

تمسح عينيها من الدموع التى تجمعت فى الزوايا:

- بسلامته سرق جبنة العيال، والناظر راسه وألف سيف يحوله للتحقيق وينقله من المدرسة، والبلد بتتحايل عليه عشان يكتفى بالنقل بس.

كنت واقفًا أمام منزلها، حين خرجت وأغلقت الباب خلفها لمحتنى:

- أنت لسه هنا؟ هيه.. عملت إيه فى الخرسا، وخايف؟

سكتُّ مستسلما ليدها.. لماذا تسخر منها جدتى وهى الوحيدة التى تعبر بى من الخرساء دون أن تمزق ثيابى أو تصيبنى طوبتها التى لا تخيب؟

قصه لم تكتمل

بالجلباب المشجوج الأكمام يسير.. بدون جلباب يسير..

عاشق لصوت المغنى الشعبى الذى يلقى القصص فى الأفراح. مدمن للب الأبيض وبسكويت الشمعدان. ضبط متلبسًا يغنى إعلانه وحيداً. لا يذكر شخصاً صغيراً كان أم كبيراً، مجرداً دائمًا الاسم مصحوبًا بـ: يا عم أو يا خال.

عدو لكل وسائل المواصلات، فهو لا يركب حتى حمارة، والسبب فى ذلك "أولاد الحرام"؛ ضبطوه متلبسًا على عربة يجرها الحصان متشعلقا، فصاحوا فى صوت واحد "كرباج ورا يا أسطى".

لم يلحظه أحد فى القرية، ولو مصادفة، بدون "غلق"، يؤكد البعض أنه يعامله معاملة البخيل لدفينته.

أول من يصحو فى القرية منتعلاً الأرض ورافعًا "الغلق".

يتجه صوب الحقول والمزارع السمكية، يبيع ما قسمه الله له أو ألقى به الواهبون..

البعض يصفه بـ"المنيولير"..

ماتت أمه.. وفي قريتنا يموت كل الناس!

لم يحتمل الأمر. فلم يكن مهيئًا بعقله القاصر بشكل ما لتفهم الموت وقوانينه.. هام على وجهه بحثًا عنها، يظل طوال الليل جالسًا على عتبة الباب ينتظرها..

أرغمه أهله على الذهاب إلى الأراضي المقدسة، فهناك من الممكن أن ينسى..

عاد من عمرته كما كان تمامًا. غير أنه كثيرًا ما يذهب إلى المقابر، يطوف حول قبر أمه، يزرع كل ما تقع يده عليه من نبت الأرض، يظل يحاورها ويقص عليها همومه.. غير أنه لا يدخل المقابر "بغلقه أبدًا"، يتركه خارجها وكأنه رجس، يبدأ دائمًا بالسلام:

– عامله إيه يا أمه؟

ينتظر برهة لربما ردت عليه..

– الدنيا من غيرك ضلمة قوى يا أمه.

يذرف دمعة، تتوقف على وجنتيه:

– طيب لما إنتِ مرتاحة عندك ماخدتنيش معاكِ ليه؟

– طول النهار وأنا ماشى على سكة البحر. مش إنتِ هتيجى من البحر؟

يصمت برهة أخرى:

– الناس بتقول عليّا أهبل. هو أنا أهبل صحيح؟ مش لو أنا أهبل كنت صدقتهم؟ وكانوا خدوكي مني؟ أو خدوني منك؟

– مش أنا معاك لوحدنا؟ وإنت مش عايزة حد غيري؟

– أصل أنا غير إخواتي؛ أنا ماعرفش حد غيرك.

تنهمر دموعه وتتغير نبرة صوته:

– الناس قاسية قوي يا أمه، بيضربوني بعصيان رمان، وأنت عارفة لبلوب الرمان بيوجع قد إيه، أنا عارف إنك عارفة كل حاجة.

يهدأ قليلا:

– أنا زرعتلك كل حاجة خضرة، ودهنت الأوضة بالأخضر، مش إنتِ بتحبِّي الأخضر؟ يتنهد.

– أنا ميسوط وأنا جارك. أنا خايف أروّح، أنا ماشي يا أمه. عايزة حاجة؟

يختم بالسلام. ينسحب، يمسك "غلقه" ويعدو نحو بيته.

قانون مقارن

فى الغرفة الرابعة من المشفى العالمى جلس القرفصاء على حافة السرير، ماذا يمكن أن يقول؟

هل يخبرهم بالأمر؟

هل من الممكن أن يتفهموا قراره وهو صاحب الرأى فيهم؟ هو ابن القرية البعيدة على مصب النهر، والذى يحمل إجازة فى القانون المقارن. هل يقول بأن الورم تغلغل فى جسده تمامًا، وأنه لا فائدة؟

هم أهله البسطاء؛ لن يستوعبوا الأمر أبدًا. هل لا بد لهم أن يتحملوا همومه؟ هم بالأكيد آتون كى ينظروا ماذا هو فاعل لهم فى المستقبل.

يا اللّه، ومن يعرف المستقبل؟ من من أولادهم سوف ينتشله من الصقيع حين تنغرس قدماه فى الطين فيكون نخلة قرت بأرضها ولا

فكاك؟ والنخل عندهم هو المادة الأولى للحياة. الهيولى المقدس. كل أمراض العقم تعالج من ذكر النخل. هو الأبدية. الرمز الكامل للخلود. لا يتذكر متى قال له أبوه:

– النخل يا ولدى هو الونس والألفة، لو انقطع بك الطريق ورأيته تعرف عندها أنك فى العمار.

وهو الذى –فى قاعة المحاضرات– كم قدّم وأجّل. كم مرة منح إيماءة الرضا أو تقطيبة الغضب.

حين يكون بينهم يشعر بالألفه والتوق لأن ينسى أو يتناسى كل ما هو فيه. يشعر فى وجودهم بأنه نبت كنخلة عفية نقلت من أرضها إلى أرض بوار. تحن دائمًا للشمال حيث مصب النهر، ولما لم تجد من سبيل مالت بسعفها وطرحها إليه. هم الحقيقة الوحيدة فى حياته، فما فائدة القانون المقارن؟ وما جدوى فلسفة القانون؟ وما تعنيه نظريات السبب والصفة؟ العميد "فيجى.. لمبروزو"؟ ما جدوى كل ما تعلمه فى حضورهم البسيط والطاغى؟

حتى لهجته التى بدلها لتناسب المدينة وأهلها يمقتها، فهى حبل حول عنقه، يبذل جهداً فوق جهده حتى لا يتضاحك عليه زملاؤه أو يتغامز عليه طلابه. تمامًا كرابطة العنق المقيتة.. فماذا حقق بحياته؟

هل وصل يومًا إلى الرضا؟

وهل حقًا كان له اختيار؟

سيختار للمرة الأولى فى حياته.. سيقص عليهم الأمر كما هو، يعرف أنهم حتمًا آتون. سيكون بعدها طيعًا كفتاة بكر فى ليلتها

الأولى. سيترك لهم الأمر وهم يفعلون ما يرونه له، وهو يعرف أنهم آتون..

عليه أن يدخن تبغته الأخيرة، فحتمًا سيقول أحدهم بصرامة أو برقة "بلاها السجاير"..

عليه أن يقول الأمر كما هو، ويطلب منهم ألا يدمعوا عليه.

آن له أن يعود إلى أرضه، فيكون نخلة لا تترك أرضها بعد ذلك. عليه أن يستعد ليخطو فوق البخور. للإبرة التى سوف تخترق جسده "المرهف"، فينزف السموم وسنوات البعد..

عليه أن يستعد لحلقات الزار، والأعمى الذى يضع يده على رأسه ويقرأ المعوذتين.

هو مستعد الآن للموت كأجداده، ويعرف أنه فى اللحظة الأخيرة لا بد من أن يطل بعينيه من شرفة جانبية ليلمح النخل سامقًا..

لا بد لموته من أن يليق بالرجل الشمالى.

الجانب الآخر

يتسلل فى الليل مبسملاً ومحوقلاً. يضع البالطو -صديق صباه- على كتفيه. لا ينسى أن يتحسس الغطاء على أجساد أحفاده المتراصين فى غرفة "الكنب" المقابلة.

يحبك الغطاء عليهم وهو يتلو آيات القرآن. يفتح الباب ويتجه نحو المسجد..

فى طريق عودته أسماء كل من عايشهم مجمعين فى مجموعات حسب تاريخ الوفاة. تخرج الأسماء من فمه كأغنية شجية، كل مجموعة مكونة من عشرة أسماء، ثم يتلو الفاتحة، يعقبها والفاتحة على روح فلان، وفلان، وهكذا..

يفتح الراديو على الأخبار بحكم العادة، يصحو المنزل، وتبدأ مراسم الفطور، تعلو الشمس فى السماء، يأخذنى من يدى، فأنا أقرب الأحفاد إلى قلبه:

- هنروحوا الأرض نطلقوا الميه النهار ده؟

على الطريق الترابى، والذى ليس له نهاية، أسأله فى لؤم طفولى:

- مش كنت تجيب لنا حمارة؟

- طيب بمخك نبيتوها فين؟ افهم؛ إحنا صيادين مش فلاحين.

يشعر بقسوته:

- إنت لا هتكون فلاح ولا صياد.

- بس أنا عايز أكون فلاح.

تتعالى ضحكته:

- أنا عايزك زى الأستاذ أحمد؛ تقرا فى الكتب، وتلبس نضارة، ولما حد يكلمك تنزلها من على عنيك وتعمل إنك ماكنتش واخد بالك.

- بس الأستاذ أحمد أهبل. إنت اللى قلت.. هو إنت عايزنى أتهبل؟

- اسم الله عليك يا ابنى. اوعى تقول كده تانى. إنت عارف إنك أغلى عندى من الدنيا كلها. أنا عايزك لما تتكلم الناس تسمعك وتقول هو ده الكلام.

- أنا بافرح لما باشوف الغيط.

- كلنا بنفرح لما نشوفوه. وبعدين الأستاذ أحمد مش أهبل، بس كلامه ما يدخلش العقل.

- يعنى إيه؟

- مثلا يقول لى إحنا عايشين على كورة. والكورة دى بتلف، يعنى لو عايز...

- لو عايز إيه يا سيدى.. سيدى.

- لو عايز أروح دسوق أقول لها يا أرض لفى ودّينى من غير ما أدفع أجرة عربية واللا أخدها كعابى؟ معنى كده الناس اللى فى الناحية التانية. الله.. أستغفر الله العظيم.. دا أنا لو صدقت أبقى كفرت.. لا. لا. أستغفر الله العظيم. وباقول لك أهه، إحنا قربنا، إوعى تسمع كلامه ولا تصدقه، ولو كلمك ما تردش عليه.. وأنا هأقول له عيان وعيط ورايا وأنا جبته عشان مايتشقاش. فاهم؟

- بس إيه اللى فى الناحية التانية؟

- ناحية إيه؟

- الناحية التانية من الكورة.

- يا سنة سودة! أنا يا ولد باقولك إيه من الصبح؟ ياللا بينا نروحوا .. إنت هتضيع كده منى. ناحية تانية! الله يخرب بيتك يا أحمد ويخرب بيت كتبك!

جذبنى بقوة لنعود إلى المنزل، وطوال الطريق وأنا أرى مروجاً خضراء على امتداد البصر، وثماراً دانية، وعصافير الجنة تحلق حول وجهى تماماً، تلك التى قال عنها جدى:

"اللى يدبح عصافير الجنة ربنا يوديه أكبر نار".

ما لم تقله سعاد!

ارتدت سعاد ملابسها.. خلعت سعاد ملابسها.. نظرتَ سعاد إلى المرآة، تبادلت معها الشتائم والسباب، تعرت تمامًا. سعاد جدلت شعرها ضفائر، لمحت سعاد في المرآة.. سعاد التي لا تعرفها.. تبادلتا الحكى والدموع.

الليل يا سعاد طاقة من الحرمان تتفتح فيها القلوب. ينام الخلق يا سعاد وتصحو الرغبات الميتة. ظلِ الحائط كان اختيارك، وظل الرجل كان اختيارك. مات الرجل يا سعاد وتشقق الحائط. ترك كوىً يا سعاد تمر خلالها الأحزان والذكرى، وكل الذكريات يا سعاد. المرآة وردية. أحضان، وقبلات. دموع ممتعة يا سعاد. المرأة يا سعاد القابعة أمام المرآة. ليس كل الذكريات، سواء أكان الجوع وكان الخوف، لا تدخل الرغبة جسداً خائفًا، لا ينام رأس جائع. وأنت يا سعاد اخترتِ الحائط، أنتِ يا سعاد اخترتِ الظل الزائف.

مدت يدهـا، أخرجت زينتـها كاملـة، دارت دورة كاملة، نظرت إلى مؤخرتها، تلك التى جذبت ظل الرجل الغائب.

فى اليوم الأول احتـضـنـها وبـكى، جذبته إلى صـدرهـا العارى، هدهدته بالرغبة حتى استكان.

فـى الليل عوى كذئب ضـار، هـدهـدته بالطـعـام حتى استكان فى الصبح، احتضنته وبكت.

قولى يا سعاد.. من خلف النجم القطبى يرقب وقع أقدام الرجال إليك، والظل/الرجل يريد أن ينام، ويقوم يعوى من الجوع. والرجال الذين بلا ظل لا يدفعون بدون ثمن.

مـا لم تـقـلـه سـعـاد بـأن الـظل/الحـائط قـد تـشـقق من زمن، والرجل/الظل يشاركه فى التشقق والغياب، وأن سعاد المرأة صارت ألف سعاد. تهتز هناك، حين ألقت سعاد القابعة أمام المرآة بزينتها فى وجه المرأة.

ما لم تـقله سعـاد "القابعـة أمام المرأة" إن الليل طويل، والظل الغائب قد مات، والرجال بلا ظل؛ لا يسدون جوعًا، ولا يطرقون بابًا، وإنها تنتظر الظل الفارع..

حالـة

لا أعرف متى وصل عمى محمد فأصبح من الواصلين، وكان كلما زاد وصولا زاد ابتعاده عن الدنيا، فما عادت تعنيه فى شىء. طلقها، أهمل عمله كتاجر، فهو صاحب المحل الأول فى القرية..

أهمله ولم يتركه..

غير أنه لا يوجد في محله ما تعودت أن أجده عنده، فهو يختص بسلع لا ينافسه فيها أحد، اعتزل الدنيا ولم يعتزل. ترك لعب النرد والشيشة، أمسك بمسبحة طويلة تتلاعب بين أصابعه، يصلى منفرداً فى محله، مال إلى الصمت والتمتمة. لا يبدأ حواراً، أى حوار، ولو شارك فيه يكتفى بالرد على الأسئلة..

ألاحظ ما ينتابه من حالات، وأحار فيه، يدمى قلبى عليه. وعلى الرغم من أنه أقرب للخال منه إلى العم، فإننى لا أناديه إلا بـ"عمى محمد" منذ كنت صغيراً متردداً على دكانه، ويروقه ذلك..

صارت متعته الوحيدة حلقات الذكر، يبدأ بالحركة الأولى، خجل يعتريه، تدور في رأسه الأفكار باهتة، ذكرياته تلتف عليه وتروغ، تتصلب حركته. سرعان ما تخرج الآه الأولى بشوق وتوق إلى الـ"هو" الأعلى الهادر بداخله، متممة لما يفر منه..

تتكرر بعفوية سلسة "آه.. آه"!

تكون هى الاختزال لكل ما يدور بنفسه. يتخلص البدن من علاته وقيوده. تتطوح رأسه كمخمور..

الآه تصغر فى الذكر فتكون، مع ألف الله، آهةً مكتومة متصلبة وذائبة فيها، تصعد مع الإنشاد الأول، تتحرر روحه إلى كلمات ليس لها معنى، مستقلة دونه، تتسارع حركته، يميل بجذعه فيكون حرفًا له سر بحالته، تمرق فى ثوان حياته، تتضح الرؤية الكلية، تتصارع نفسه مع الإنشاد. يتبين له ما خفى من نفسه، ينفصل جسده تماماً، يرقبه عن بعد فى تسام مهيب، يصرخ:

"كن معى يا الله"..

"ألقِ عن كاهلى الدنيا"..

"أمطرنى بفيض عفوك"..

"أدركنى بركاب حبك"..

تذبل رغباته.. تطفر دموعه:

واحد أنا يا أنا. وكون وجودى امتدادا للوجود، واحتمالى بقاءً مستمراً، فأعنِّى على الاحتمال، واغفر بدون سبب للغفران..

الله.. آه.. هو الله.

هى المتعة الكلية والألم المطبق.. هى غناء الروح ومزمور الذبول..

الله.. آه..

ما بينهما معلقة روحى، وتميمة بقائى، وسر زوالى، ورؤياى..

الله.. آه..

تفرين من أمامى يا التى غصبت نقائى. طود من الحلم والممكنات. قاهر للزوال، ومحتمل للمحن..

الله.. آه..

كان الدرويش يتطوح ماسكًا بسعفته فوق كتفيه، غافلا عما حوله. تقافز المريدون على سعفته. يحملهم فوق كتفيه. لم يكن يراهم، غافلا بعشقه عمن سواه، وحين أدرك خرّ بحمله، فتساقط المريدون وهم يصرخون..

الله.. آه..

اجعلنى يا معشوقى غافلا عمّن سواك. أعنِّى أن أرى حمولى فأكون بها مستمسكًا.. قوى أنا بك فأعنِّى. لم ينفد الصبر يا حبيبى وأنت ترانى، فلا تلتفت عنى، فأرى سوأتى وتسقط حمولى..

الله.. آه..

أعدنى إليك قبل النفخ، فأكون قريبًا من ذاتك ناظرًا إلى بهائك..

الله.. آه..

سر شقائى تعلمه، وعالم أنا بجهلى، فأحطنى بثوب رحمتك، وارحمنى من السقوط المهلك..

الله.. آه..

الله.. آه..

....

....

....

....

أسراري تعرفها، وما بيني وبينك كأني أجهله، فأطلعني على نفسي، فأراك..

الله.. آه..

تهبط الوتيرة، وعمي محمد لا يسمع أحداً، ولا ينظر إلى أحد، وأنا أتابعه عن كثب وخجل، يحتويني أن أضبط متلبساً بالذكر والدروشة. تتطوح ذراعاه متناغمة مع إنشاده الذي يخلف سحراً يزلزلني، وشجناً يلبس ثوب عمي محمد.

يتوقف الكلام الذي هو أعلى من الكلام، ينسحب الذاكرون واحداً تلو الآخر، وأعلم أنه لن يتكلم معي. يظل شارداً وصافياً في نفس الوقت، ينظر إلى ما لا أراه، فترى ما الذي يراه عمي محمد؟ وهل تتلبسه الجنيات فتدفعه إلى طلاق الدنيا وتسحبه إلى الذكر والدروشة؟

ما الذي يراه عمي محمد؟ هل يرى الله حقا؟

وكيف بعوده الهش، وكأنه قُدّ من قوارير، حين يتمايل وأفقد الإيقاع، تلقي بي يده على أرضية الحلبة؟ من أين أتي بكل هذه القوة؟ وترى ما حموله التي يفضي بها؟

ما الذي يعانيه عمي محمد؟

حنـين

فتح غرفتها/غرفته..:

نفس الترتيب الذى يحفظه عن ظهر قلب. هنا سريرها النحاسى، "كانت قوائمه أطول بكثير"، تآكلت أرجله متعاطفًا معها لتتمكن من امتطائه، وكأنه أعلن لها تمسكه بأن يكون مطيتها، صاحبها "أيام الصبا"، القفزات السريعة والضحكات التى تخرج من القلب. مع الزمن شاخ معها، فلم يكن كالأسرّة فى أزيزه، بل تبادل معها الآهات ولحظات الوجع.

هذا السرير كم منح بريقه نورًا متماوجًا انعكس على وجهه مخلفًا آلافا من الصور والخيالات..

هو يتأمله الآن، وكم يعذبه اختفاء صوت الأحجية، والزخارف النحاسية على أشكال النجوم والأهلة التى كانت سلوته فى لحظات الحزن القديم، وكانت حيوانه الخرافى الذى يلقى به على أرض الحلم

العصى فى مقابل الوسادة. كان الشباك المتهالك، بكيسه البلاستيكى، بالشرخ الطولى فى المنتصف، هذا الذى أورثه عشق السفر. حين يمر الضوء من خلاله، فيرسم مركبًا بمجاديف على الحواف، وشراعًا بطول المسافة ما بين السرير ودولاب الملابس.

هو الضوء الأول حين كبر عما تشق الشمس المسافة التى تلامس فيها حافة الأرض يدخل من خلاله فيرسم بيضة "كان يغمض عينيه حتى تفقس"، فيرى حين يفتح عينيه مركبًا يتعاظم فيبثه همومه ولوعته.

هنا الدولاب، خازنة الفرح، والملابس، والخلاخيل. هنا بالضبط يقبع ثوب زفافها، زجاجة العطر الأولى، "وربما كانت الأخيرة"، فهو لا يذكر أنه رأى غيرها.

هنا ملابس العيد خاصته، "دائمًا ما جلبت له ملابس كبيرة عليه حتى لا يطالبها فى العيد الذى يليه"، هنا زخارف الدولاب الخشبية على شكل تنينين هائلين يرتمى ذيلهما على قاعدة المثلث، ويشتبكان عند الرأس، كسرت من زمن، فاحتفظت بها ملاصقة للحائط، ومستندة إلى حافة الدولاب العلوية من الأمام، والضلفة المتآكلة، ومرآتها الضبابية. كم مرة جدلت شعرها أمامها؟

"النيش" ملاصق للحائط، خزانة خشبية فى جزئه الأسفل تعلوه رخامة بيضاء مثبت فوقها دولاب زجاجى بضلفتين، أطباقها وفناجينها بداخله فى سبات عميق تشاركها الغياب.. والضلفة اليمنى كان قد رسم عليها بحّار يرتدى صديريًا مقلمًا ممسكًا بسمكة تحاول

التملص من يده القوية، جاهد أن يمنع دمعة تبرق فى عينيه، خلع نظارته الطبية، وأخرج منديلا ورقيًا، أقبر دمعته فيه..

هو الآن يفهم الأمر. أعاد ترتيب الأشياء، عاد كما كان تمامًا، "حين كانت تزجره النسوة يفر إليها، يرتمى بثقله عليها وتخنقه العبرات".

– نعم يا أمى، لم أستطع أن أشق البحر. تعبت ولم يتعب البحر. كنت دائمًا السمكة فى يد البحار، لم أكنه، ويده القوية فوق عنقى، هل تسمعين الآن؟ حاولت أن أكون البحّار، وبعد كل هذا العمر عدت، لكن كسمكة، فخاخ الصيد عن يمينى وعن شمالى، وشباك العدا من فوقى، ومن تحتى، هل تسمعين؟

اهتز جسده فى بكاء محموم، تلاشت المرئيات والصور أمامه، عبثًا حاول تجميع ما تناثر من روحه، خلع حذاءه، تمدد على السرير ويداه بين رأسه والوسادة، وجد بحّارا هائلا يمسك به من رأسه وهو يحاول الفكاك مرسومة بدقه فوق زجاج الضلفة اليمنى من "نيش" أمه. أشاح بعينيه تجاه الشباك، تتبع خيط النور حتى لامس أرضية الغرفة مركبًا هائلا بمجاديف على الحواف، وشراع بطول المسافة ما بين السرير ودولاب الملابس. تململ فى رقدته، أزّ السرير، تحركت أحجيته، عزفت أهلته ونجومه وحيوانه الخرافى يلقى به إلى أرض الحلم العصى.

بلطجى

حين قررنا الذهاب إلى المقهى لم يكن الأمر يخرج عن هروب متفق عليه دون قدرة على التصريح، ففى الغرف المقبضة، تلك التى تثير الإحباط، ليس أمامنا إلا الهروب. بداية الشتاء، لسعة البرد الخفيفة، رعشة الجسد الأولى فى مقابلة النسيم البارد. دس الأيادى فى الجيوب الخاوية، فى الطريق بدأ الحوار عاديًا عن الطقس. بدون اتفاق أطبق الصمت بمرورنا على المقابر. بدأت تمتمات لكلمات متآكلة لا يظهر إلا أواخر حروفها، ونحن نقرأ عليهم السلام ونختم بالفاتحة.

الكراسى التى تعودنا الجلوس عليها، والمتاخمة للترعة، اكتظت بالرواد ناحية التلفاز، حيث تذاع مباراة فى كرة القدم، تنحينا جانبًا فى المكان الخالى، هرع إلينا النادل بالكراسى مُرحِّبًا:

- تشربوا إيه يا أفندية؟

وبالعادة التى يعرفها طلبنا الشاى:

– المجلس العسكرى خاين.

– لا، ممكن مش فاهم سياسة.

– اللعبة وسعت منه، ومش عارف يراضى مين.

– يا عم صلِّ على النبى، هم امتداد للنظام السابق.

– عليه الصلاة والسلام.

– لسه الأمور مش واضحة.

فى الناحية الأخرى من الرصيف، وأمامى مباشرة، كانت قطة تداعب صغارها، لفت انتباهى تفاوت أحجام الصغار وكأنهم ليسوا نتاج بطن واحدة، دخلت بصغارها تحت سيارة "فورد" ركنها السائق وذهب لقضاء حاجة له.

بين الفينة والأخرى يتجاسر أحد الصغار ويخرج من بين العجلات، فتسرع أمه إليه، تضربه برقة، يقف على قدميه الخلفيتين، ويحاول أن يرد الضربة، وأمه تمد مخالبها لتصد الضربات دون كثير اعتناء.

– الناس اللى ماتت فى الفترة الانتقالية أكتر بكتير من اللى ماتوا أيام الثورة.

– ياريت على كده، شايفين الشباب اللى قام بالثورة؟ الشباب اللى زى الورد بيتحاكم قدام محاكم عسكرية.

– يا جماعة الصورة مش واضحة، طيب مبارك وعياله ليه بيتحاكموا؟

لاح سائق الفورد محملا بأكياس بلاستيكية والقطط الصغيرة بين الإطارات في تمرين مستمر.

حين اقترب من صندوق السيارة وضع الأكياس ثم اتجه إلى باب العربة والهررة الصغيرة اختفت وهي ترقب أقدامه في حذر..

– شفت واحدة ابنها شهيد، من ساعتها وأنا مش عارف أنام.

– ياه.. شهيد! هما ولاد المرة بيقولوا شهيد؟

– طلعوا شوية بلطجية، مصر قام بثورتها شوية بلطجية! يدخل السائق إلى العربة ويديرها، القطة الأم في شبه غفوة مستمتعة بدفء الموتور والصغار في كر وفر دائم.

– مصر بتضيع. يا ألف خسارة!

– والله كانت فرصة عمرها ما تتكرر.

السيارة تطلق التحذير الناطق.. "انتبه؛ السيارة ترجع إلى الخلف". سكت الحوار فجأة على مواء أقرب إلى الصرخة، والسيارة ما زالت ترجع إلى الخلف.. السيارة ترجع إلى الخلف..

المواء الصارخ يتعالى. انتبه الجالسون إلى التلفاز، دارت رؤوسهم إلى مصدر الصوت ثم ما لبثت الأعناق أن عادت إلى مسارها السابق، اعتدلت السيارة وانطلقت إلى الأمام مخلفة أربع جثث لقطط صغيرة "لا يمكن أن يكونوا نتاج بطن واحدة"..

والهرة الأم يتدلى جلد وجهها المهروس على عينيها، وعرج واضح في قدميها الخلفيتين، تزحف بعزم إلى جثث صغارها، وتموء في مرارة، ترتكز وتجمعهم، تتكئ بجسدها عليهم، تتشممهم، ويستمر المواء.

سكت الحوار تمامًا عدا رشفات الشاى، وآهات المتحلقين حول التلفاز "تشجيعًا للعبة الحلوة"، ومواء ضعيف يصل إلى حد الهمس لهرة ترتكز على أحشاء صغارها.

عطر قديم

أحضر القفص، رآهم هناك على الضفة الأخرى يمسكون بالسيوف ويقطعون سعف النخيل.

كان الرجل يجلس القرفصاء، ويمرر الجريدة بين يديه، وسيفه يشقها إلى نصفين.

هو أبو زيد "ضربه على هامه.. نطت رأسه قدامه"

تعجب كيف يملك هذا الرجل تلك السرعة المقترنة بالدقة حتى لا يجرح يده.

حاول ذات مرة أن يقلده وهو يصنع طائرة ورقية جرحت يده جرحاً غائراً، أتوه بتراب من المقبرة التي ترابها دواء، حشوا بها جرحه.

ارتفعت حرارته. فى المساء رأى أمه تلك التي رحلت من زمن بعيد. غير أنها تأتيه ليلا لتضع الغطاء على جسده المكشوف، تمسح

وجنتيه وتطبع قبلتها فوق جبينه، تحتضنه ويضمها إليه، غير أن الخرقة المبللة بالخل الأبيض تضيعها.

غطى القفص بشبكة قديمة لم تعد صالحة للصيد، ربط القفص من أعلى بحبل رفيع، وبطول مناسب وضع القفص ومشى بالحبل حتى آخر طول له، جذب الحبل، نزل القفص مكانه منكفئا، هلل للتجربة.

نزل من الجزء العالي من منزلهم، وهو يتلصص على غرفة جدته، التى إن لمحته أو أحست بأقدامه على السطح تنادى بصوت زاعق:

– انزل يا منيّل إنت ولا هىّ، الدار هتقع علينا.

وهو لا يعرف كيف لمنزل استمر عشرات السنوات، وأبوه وأعمامه وعماته يتسامرون على سطحه فى ليالى الصيف الحارقة بدون أن يسقط تحت وقع أقدامهم. كيف يسقط تحت وقع أقدامه هو؟!

تسحب فى بطء، وترامى إلى أذنه حين نزل إلى البهو السفلى المؤدى إلى بئر السلم صوت أعمامه، وهم يحسبون بكم باعوا، وبكم أتوا من البحيرة، وما عليهم إنجازه أو تأجيله من أعمال يأتى فى صدرها "تعمير الفلوكة الصغيرة"، فمنذ وعى وهو يستمع إلى المناقشات التى تنتهى دائمًا بتأجيل "تعمير الفلوكة الصغيرة".

صعد على السلم فى بطء متناه حافى القدمين، كعادته دلف إلى غرفة الخزين والمفتوحة على البسطة العلوية من السلم الطينى، أدخل يده الصغيرة، وأخرج حفنة من شعير الأرز القابع داخل برميل فى الزاوية المظلمة من الغرفة، رأى أنها غير كافية، وضع يده مرة

أخرى، أعقبها بثالثة، صعد إلى السطح، ثبت قفصه واقفًا على الضلع الأقصر من المستطيل، وضع الحبوب فى مواجهة القفص، فرد الحبل على طوله من القفص إلى غرفة الخزين.

لم يكن الوضع ملائمًا، فلم يكن يلمح القفص من مكانه غير من وضعه بأن ظل واقفا تحت الشمس مباشرة على البسطة العلوية من السلم، نزلت العصافير إلى الحبوب، انتظر حتى أمنت، وبحركة واحدة كان قد أعد لها فى رأسه آلاف المرات، جذب الحبل، انكفأ على عصفورين، جرى فرحًا رغم تحذيرات الجدة. مد يده وأمسك عصفوراً من تحت القفص، أخرج من جيب بيجامته خيطًا ربطه فى طرف منه، ثم أخرج الآخر وربطه بالطرف الثانى، سكت صوت الجدة فى الأسفل، لربما أدركه صوت المؤذن، فرددت وراءه وأعطته فسحة من الوقت.

كرر صيده مرة أخرى، غير أنه تعلم الحذر هذه المرة، فلم تلحظ الجدة حركته على السطح، ربط العصفور بجوار أخويه، وعاود الكرة..

يقف على البسطة العلوية، تهبط العصافير من كل صوب على حبوبه، يدق قلبه، يمرق أمام عينيه الصغيرتين طيف أمه، تتعالى دقات قلبه، يشم رائحتها التى يشتاق إليها، يجذب الحبل وهو يرجع للوراء، يجذب.. يجذب.. يتهاوى.. يسقط فى البهو السفلى لبئر السلم، يرتطم جسده بالأرض، يهرع إليه أبوه، وأعمامه، وزوجات أعمامه، جدته تستند إلى الحائط، تحتضنه.

يشم رائحة أمه، يبكى بهدوء، تنزل دموعه ساخنة، يدها تمر على وجنتيه، ينادى بصوت مكتوم:

- إنتِ جيتى يا امه؟

هو الآن فى حضن أمه، يشم رائحتها ويدها تداعب شعره المتهدل بالتراب والعرق، تغنى له أغنية كانت تهدهده بها: "نام يا حبيبى نام"!

موت قديم

فى الغرفة العالية الجدران اقتربت المرأة ذات الأصابع الطويلة والبشرة الناعمة بأذنها من ثغر أمه. كان الصوت ضعيفا كمواء يختلط عليه قبيل نومه، غير أنها رفعت رأسها، وقالت:

– والله ما أنتِ ميتة، هو مين يعرف؟ دا معاد ومحدده سبحانه. طيب أم حسن كانت تعبانة، وعيالها قاعدين على راسها. مرة واحدة قالت أنا عايزة آكل.. تاكلى؟ تاكلى إيه؟ قالت عايزه فسيخ! أهى بقالها عشرين سنة قاعدة. عيالها ماتوا وهى قاعدة، والله إنتِ هتصحى.

لماذا هذه المرأة التى لا يعرف كيف تكون خالته "فهى ليست أختا لها" تدفعه لأن يصدقها وحدها؟ ويكذب الأخريات؟

تقول النسوة إنها مسألة وقت وتموت. أمه تموت! تموت فلا يراها ثانية! كم يتمنى أن يظل بجوارها يرقبها ولا يستطيع. لماذا كلما

حاول الاقتراب منها يخرجونه؟ ولماذا لا يستجيب الله لدعائه؟ ولماذا يسيطر عليه الخوف كعصفور دفعته أمه من العش قبل أن تعلمه الطيران؟ يجرى هنا، ويتمهل هناك؛ لا يقر له قرار.

يتسحب كى يتنصت عليها؛ لربما نادت عليه، والنسوة حولها كلما اقترب يلمح الدموع فى أعينهن؟

يتسلل اللون الأزرق إلى ساقها، بدأ بالأصابع ثم القدم، وها هو يزحف نحو الركبة.

فى الغرفة الكبيرة كان الرجال يتحاورون عن السيارة البيجو، وصل إليه صوت الحلاق:

– دى يا أسيادنا شغالة بالبنزين، ولو حصل حاجة لا سمح الله مايطلعش منها نفر، وبعد ما يطفوها، تمسك الجدع من دول يتفكك منك زى زهرة السيجارة. "أستغفر الله العظيم".

تتنقل الشيشة بين أيديهم، يتعازمون على أكواب الشاى، التى اشتراها أبوه "اختارت أم وزة.. هو إحنا ناقصين مراكب".

لماذا هم مستسلمون هكذا؟ أو ليس هناك من حل؟

اقترب من فراش أمه، سمع صوتها يهمس فى أذن إحداهن، دمعت المرأة وأشارت إليه "بتوصى عليه".. هل هذه هي النهاية؟ لماذا لا يستجيب الله لدعائه؟ واللون الأزرق يدب متسللا إلى أعلى، والوجه يزداد شحوبًا، والصوت يكاد يختفى، وأمه تلقى وصيتها قبل أن يذهب صوتها، والرجال فى الغرفة الكبيرة

يتضاحكون، والحلاق يعذبه احتراق الأغراب، والسيارة التى تسرق الطريق، والكوب أبو وزة، وصراخ النسوة فى الغرفة العالية الجدران يجرى للمرة الأولى عليها منذ زمن، يلقى بجسده عليها؛ لربما استطاع أن يحميها من الموت، يلمح وجهها، وشبح ابتسامة مرتسمة على محياها، ودموعه العصبية، وذهول وجه أبيه، واليتم الذى يقبض على قلبه، والمرأة ذات الأصابع، والبشرة الناعمة تعلن فى خجل: "البقية فى حياتكم".

ميعـاد

على جانب القارب يجلس عبد الحميد؛ يترقب في هدوء شباكه في البحر بينما عمه محمد يجلس في قلب القارب يحتسي الشاي، وعبد الحميد لا يتكلم سارحاً برأسه للبعيد، وعمه يرقبه، يهم أن يسأله عن ما به، غير أنه يتراجع؛ تقف الحروف على شفتيه.

برقت عيناه، وتظهر ملامحه أنه يجاهد كي لا تظهر دمعة.

سمعه عمه يكلم نفسه:

- اصبر يا بني؛ أنا جاي.

لم يلتفت للأمر إلا أنه مزحة أو حالة من تلك الحالات التي يعرفها، غير أنه سمعه يهمس:

- كل ده فيك يا بني؟

- حاسس بيك.

- والله عارف؛ اصبر عشان خاطري.

ترك كوب الشاى، وأطفأ نار النرجيلة، ونظر إليه ملياً:

- فى إيه يا عبده؟

لم يرد، وهو يعرف أنه لن يرد، ها هى الجنيات يركبنه من جديد، وما من قوة في الأرض تمنعه عما فى رأسه، قلقه يحتم عليه أن يحاول سبر أغواره، فلربما يستطيع أن يخفف عنه:

- فى إيه يا بنى؟ قل لى؛ ماتتعبش قلبى.

أطبق فمه وجز على جانب وجهه وكأنه يعانى ألما ما، يعرف عمه أنه ليس ألمه، إنما لغيره فى البعيد.

- لو عايز نروّح ياللا بينا .. بس إحنا بالليل.

فتح فمه للمرة الأولى، وبرقت عيناه، انتفضت الدموع فيهما:

- وانت معايا مش هالحق؛ لازم أروّح لوحدى؛ الولد بيموت وعايزنى، فاهم يا عمى؟

قبل أن يرد كسمكة غاص عبد الحميد فى الماء وسبح للبعيد، وعمه محمد -من هول صدمته- لم يعرف كيف يتصرف، فظل لبرهة فاغراً فاه ويداه متصلبتين، وعندما أفاق سأل نفسه أى ولد يقصد؟ هو لم يتزوج، فكيف يكون له ولد؟

أفرغ من زجاجة زيت قطرات من الكيروسين فى علبة "بويا" قديمة، ثم أشعل النار بعد أن رصّ بجوفها الفحم.

أيقصد ابن أخيه؟ لكننا تركناه من يومين على أفضل ما يكون. عليه أن يجمع شباكه ويتبعه، ولكن هذا المجنون كيف يصل إلى اليابسة قاطعا كل هذه المسافة سباحة؟

إنه يقطعها في نصف نهار بالشراع حين يطيب له الريح.

ربما كانت.. لا.. يمكن أن يدركه القارب، ويتشاركا الرحلة إلى اليابسة، فهو لن تذهب به السباحة بعيداً.

في لحظات أطفأ العلبة، سكب عليها بعض الماء، ثم جمع شباكه على وجه السرعة، غرس "المدراة" في قاع البحيرة، ثم ألقى جسده عليها فانطلق القارب.

تخيل في ذهنه المكان الذي يمكن أن يسبح فيه، حاول ألا يحدث احتكاكًا بالماء لربما وصل إليه صوت ذراعه يشق الماء، لاحت نجمة الفجر ولم يصل إليه، وما ترك الزبد من علامة، ران عليه التعب، فترك "المدرة" واستراح، سيطر عليه الخجل فقام وواصل سعيه في الماء. كان القمر يشق جسراً رائعًا من النور تجاه اليابسة من دون أن يصل إلى حدودها، عرف ذلك بخبرات عمره الذي جاوز الستين بقليل، لاحت له بوادر الصبح، فألقى بنصفه العلوي خارج القارب متوضئًا. واصل سعيه في وضح النهار دون أثر لعبد الحميد، تجاسر للمرة الأولى، ونادى عليه، توقف للحظة وتساءل: لماذا لم يفعل ذلك من قبل؟ واصل نداءه والفضاء يكرر خلفه.

شعور بالوحشة وحمل ثقيل على صدره؛ هل هو يحلم؟ هل كل هذا الوقت كان يحلم؟ ألم يلحظه عبد الحميد فيوقظه؟ إلى متى سيظل يبحث عنه؟ فقد كل أمل في أن يدركه، شغل رأسه.. بماذا يخبرهم إذا سألوه عنه؟

أيصدقون أنه ألقى بنفسه إلى الماء؟ وماذا لو كان الولد صحيحا؟

ترى بماذا يخبرهم؟

انتصف النهار ولاحت أمامه اليابسة كلما اقترب مع علمه بأن أمامه ساعات ثقيلة للوصول للقرية، تسارعت إليه الهواجس والأسئلة.

فى الطريق إلى القرية لا شىء يدل على أن أحداً فى القرية مات. لم يسأله أحد عن سبب مجيئه فى هذا الوقت حين دلف الشارع الذى يقطن فيه، دق قلبه بعنف، إذ لمح صفين من المعزّين أول الشارع، اندفع إليهم... كان عبد الحميد أول الصف الأيمن، وبالملابس التى قفز بها إلى الماء، تقدم عبد الحميد، احتضنه وبكى.

همس فى أذنه من خلال هزات جسده:

وصلت فى الميعاد يا عمى!

شفته قبل ما يموت.

مسحت بايدى دموعه وغمضته.

على التربة قلت له مع السلامة.

جايلك قريب.

يوم الخميس

جلست على عتبة الباب ترقب الرائحين والغادين من السوق وهى تضرب أخماسها فى أسداسها، هل هى هى؟

وإن لم تكن فما الذى تغير، أو كيف سمحت للزمن بأن يخط تلك الخطوط الغائرة؟

ليس على جسدها وفقط، إنما خطوط إزميلية موغلة فى قلبها.

كيف رأت -حين رأت نفسها- تلك التى لا تبغى سوى الهروب الدائم من أن تكاشف أو تقر؟

كيف لم تنظر كل هذه المدة إلى المرآة الملتصقة بمحاذاة السرير فلا ترى ما وصلت إليه؟

كيف أخفت حقيقتها خلف البسملات والحوقلات والآيات القصيرة التى تطلقها والمواعظ عن راحة فى الهدوء فى العزاءات التى تحضرها وصارت جزءًا من طقوسها؟

ألم تعلم، ولو لمرة واحدة، بأنها سوف ينتابها هذا الشعور المؤجل؟

علام كانت تحاجى؟ ولم لم تكن هى.. هى التى أرادتها؟

أكانت تحاجى البيت والزوج والولد؟

ها هو الزوج، بين أحضان أخرى، يلعن فى سره وعلنه اليوم الذى تمدد فيه بطولها.. الكلمات الجوفاء "التى أسعدتها" وأسرّ بها.. الساعات التى قضاها معها.

الولد؟ أين الولد؟ ها هم يفرون منها بزوجاتهم تاركين لها ما تيسر من زيارات متباعدة. حتمًا سوف تصل إلى الانقطاع، يفرون من جبروتها وتحكمها "الذى ورثته عن أمها".

بدأ اليوم عاديًا، غير أنه غير كل الأيام، فاليوم خميس؛ السوق واللمة، الفصال مع البائعين، الأقفاص الممتلئة بطعام الأسبوع، الأطفال وتفتيشهم فى مشترواتها، كلماتهم المضغومة، وطلباتهم التى لا تنتهى، محاولتها المستميتة لإرضاء الجميع، ابن الولد، وابن البنت، الأولاد وزوجاتهم، من تأكل، ومن لا تأكل، الاعترافات الطفولية "باحبك يا ستى"، قبلاتها الموزعة بعدل، النار المشتعلة، الحكى المتواصل عن قدرتها فى الفصال والشراء، السرقات التى تمت فى السوق، البائعون الجشعون، والذين ينزلون بالأسعار فى خضم المنافسة، كم يشجيها نداء البائعين حين تنطلق أصواتهم شادية بأسماء ما يبيعونه منظماً. شىء يشبه الغناء، إلا أنه أرقى من الغناء، فهو يدغدغ الجسد والروح، اليوم الخميس، وآه لو عاد الخميس كما كان... تمتلئ كل مواعين الدار بالماء.. فاليوم حموم للصغار، وضحكات، وغمزات، وتحضين، وتقبيل

للكبار، ويا له من فخر حين يندلق الماء المخلوط بالصابون المعطر أمام العتبة لتكيد الغريمات أو تنال غمزة الرضا من عيون الحبيبات!

اليوم خميس، ولا تعرف ما الذى أهاج ذكرياتها فى هذا الخميس بالذات، فمر من يومها ألف خميس، ولم تكن أبدًا بهذا الحنين إلى الكل كهذا الخميس.

فراغ يحتويها، وهى التى أخبرت أنها أزاحت كل الهموم عن كاهلها، ها هى تحن إلى الكافة، الزوج فى القرية المجاورة، والولد القابع بأحضان الزوجة، والأحفاد المتعلقين بذيول أمهاتهم، تتأمل من دون أن ترى.. عيناها هناك تخترق الجدران الخرسانية لترى اليد التى تتحسس الجسد الشاب والكلمات التى تشبه الغناء.

وهى تعرف هذا الصوت لا يكون صوته إذا عبر عن رغباته الجسدية "يصبح متحشرجا كذبيح، ومترددا كغناء فرض نفسه من دون إعداد مسبق"، هى ترى الآن كل شىء بعد أن حرمت من كل شىء، والأمر الذى يستوقفها، كيف لها لم تر ذلك من قبل؟

والنار التى تأكل جسدها الآن، لماذا لم تكن واضحة لها قبل ذلك؟

ألم تتهم بالباردة؟ فلا ترد اتهامه إلا بما يرضى غرور الذكر فيه. كانت تعرف كيف تدفعه ليزهدها بادعاء التعب أو التمسك بالغطاء الثقيل، كانت تنهى ليلة الخميس، وهذه الليلة خميس، ولكنها ليست ككل خميس، يتلوى جسدها من الرغبة، الرغبة إلى الزوج، والابن، والحفيد.

رغبة تعصف بها، فيتلوى جسدها، تدفن رأسها بين ركبتيها وتطلق البكاء المرير.

ثورة.. مضادة

هو إبراهيم بلا شك. إبراهيم السيد منصور. هو من يقف في أول الصف كعادته يتلقى عنا الضربات، ويطلق في مقابلها سيل الشتائم، ويخرج الأصوات الأنفية التى تخجل منها البنات. هو إبراهيم حادى الهتاف المزلزل، "يسقط يسقط حكم العسكر"، كاميرات التلفاز لا تصل به لعينى كما هو، فأراه أسمن قليلا عن ما هو عليه.

يخرج الهتاف من فمه حيًا بصدق وعفوية، بإيمان كامل، فإبراهيم لا يرضى بأنصاف الحلول.. وحدى أرى إبراهيم الذى أعرفه، الذى عانيت من أجله، وكأنه ابنى.

هو إبراهيم..

"قليل الحيا" كما تطلق عليه جدتى؛ ضبطته متلبسًا يخرج من أنفه أصواتًا تخجل منها البنات، يتبول من فوق المصطبة، تعرفه القرية حين يتوافد فى منتصف الصيف زوار المسجد الكبير ويقطنون بجوار

المسجد وينصبون الخيام حوله، يوزعون "الفول النابت" والشربات على الأطفال كالعادة حتى لا تبور أراضيهم.

يقضون حاجاتهم فى دورات مياه المسجد، المفتوحة من أعلى على بعضها البعض، حيث لم يكتمل بناؤها.

يصعد على الحائط من الداخل، ويتلصص على البنات وهن يستحممن، ويحكى عن أجسادهن العارية، يملأ كوز الماء ويدلقه فوق الرجال المسنين، تتبعه الشتائم أينما حلّ، يحكى عن أبيه حين يختلى بزوجته، وصراخها وتهديده لها بالصمت. يقول بأنه سعيد لكونه يعاقبها على إهمالها له، غير أنه لا يعرف لماذا يتحول الصراخ إلى كلمات هامسة وضحكات.

أبوه لا يستطيع أن يخاصمها إلى يوم القيامة كما خاصم هو ابن عمه حامد، ربما لأن أمه لا تجيد ذبح الحمام. قال له: أمك دابحة إيه؟ فرد حامد بصلف: حمامة.

فقال: ماتكلمنيش غير يوم القيامة.

ومن يومها لم يكلم ابن عمه حامد.

يحكى وهو يمسح المخاط من فوق أنفه، لا يتشاجر مع أحد إلا ضرب ضرباً مبرحاً، لكنه رجل.. إبراهيم راجل..

فهو لا يكف عن السباب وإخراج صوت الأنف الذى لا يروق لجدتى، مؤذ بطبيعته، لكنك لا بد من أن تتعاطف معه حين يقص عن زوجة أبيه التى حاولت أن تسمه، وعن رغبته فى أن يخنق ابنتها أو يطلقها أبوه فتجلس أمام بيت أبيها تبيع الخضروات، لا يكف عن الحديث عنها، وحين أسأله:

- لماذا لم يدخلك أبوك المدرسة رغم قدرته؟

يتمتم شاردا:

- شهادة الميلاد.. بتاع التموين ضيعها.

يعشق الكلاب؛ دائمًا ما تتبعه جراؤها، أو يرغمها على تتبعه. يكره صوت ماكينة الرى، حين يسمعها يجرى بأقصى ما أوتى من قوة حتى يتلاشى صوتها تمامًا.

بعدها يتكلم عن خاله الذى كان يسكن القرية البعيدة التى تطل على البحر... كان أحسن واحد يزرع جوافة، وأكتر واحد بيصطاد بالجوابى.

لا أحد يستطيع أن يوقف دموعه وهو يحكى، كيف أمسكت به ماكينة الرى من شاله وهو يديرها؟ خنقته بعد أن ضربت به الحوض الخرسانى. يتساءل دائمًا: لماذا كل من تمنى أن يحيوا.. ماتوا جميعًا؟

أمه، خاله، عمته، وجدته لأبيه!

وكل الذين تمنى أن يموتوا لأنهم يعذبونه.. يحيون!

بل ويزيدون عددًا! عامل المسجد الذى يطارده، وزوجة أبيه التى لا تكف عن شكواه لأبيه، الفلاح على أول الطريق، الفلاح على طريق المصرف كلما هم بإخراج طعم الصيد، حارس المدرسة، وخفير المضرب. كلهم أحياء، وكلهم يضربونه، وكلهم يتمنى موتهم، لكنهم لا يموتون!

وهو آه لو كان يعرف الكتابة! لكان خط لأبيه رسالة للوداع، وألقى بنفسه إلى النيل.

حتمًا أبوه يحبه؛ سوف يندم، وسوف يطلق زوجته، ويظل يبكى عليه. كان كلما تكلم في ذلك، ولم يكن يكف، يزيد قلقى عليه، وأتمنى أن تسمح له جدتى بأن يبيت عندنا، فلربما تسلل الندم إلى قلب أبيه، غير أن جدتي تعرفه..

ولد قليل الحياء؛ يمسك صدور البنات على حنفية الماء، ويخرج أصوات قبيحة من أنفه، ويسب، ويقضى حاجته في الشارع.

كان العالم بأسره يشاهد إبراهيم يهتف بسقوط العسكر، أسمن قليلا من خلال كاميرات التلفاز، ووحدى أسمعه يهتف بسقوط زوجة أبيه وحارس المدرسة، بسقوط خفير المضرب، والفلاح على أول الطريق، والفلاح على طريق المصرف، وأصوات ماكينات الرى.

قريتنا تصنع أسطورة

كانت ثمار التوت بيضاء كالثلج، إلا أن لونه تغير بدم عاشقين لعائلتين متجاورتين فى السكن بعيدتين فى الرؤى.

حين تأجج العشق بينهما رفض أهلهما تتمة هذا الحب بالزواج، منعوهما من القرب واللقيا. اكتفى العاشقان بتبادل الهمسات ليلا عبر شق فى الحائط الفاصل بين منزليهما.

يوسف هو بداية الضنى والبحث عن أسطورة يسطرها منفرداً.

بدأت أسطورته بشبكة قديمة لضم طرفيها فى بوصتين طويلتين، يقف على شبابيك أضرحة الدفن المتناثرة بمقابر القرية، يضع شبكته عليها ممسكًا بالغابتين، يدخل فتيان يصفقون بأيديهم ويطلقون الصراخ فتفر العصافير باتجاه الشرفة، يطبق الغابتين فى لحظة اندفاعها.

يتسلل في الليل كي يرى جنيات المقابر، يتسمع إلى كل همسة، إلى دقات أقدامها، يعد في رأسه الأحاديث الطويلة، ويستحضر القصص المكررة، يتمنى أن يلتقى إحداها، ويعود دائماً بلا أسطورة يكون هو بطلها، يقضى بقية ليله، "فيوسف لم يعرف منذ وعى لوجوده النوم ليلاً"، يتنصبت على شرفات المنازل المطلة على الشوارع، على همسات النساء المتمتعات ليلا من عرق الرجال وسعالهم. يحكي في الصباح عن الآهات والغنج:

– عمى سعيد راجل مع مراته؛ بتقول له هو أنت مفترى! حرام عليك.

البعض منا لا يعى ما يقصده يوسف، والبعض الآخر يضايقه الخوض في الأمر، فنحن نعرف يوسف شديد الحيلة والذكاء، فربما يحكي عن أهالينا، ويتندر أحدهم بما يلتصق ما بقى من عمر، ويوسف يحترم (الراجل مع مراته)، فلا يضايقه أبداً.

– أحسن الناس في البلد اللى يخلى مراته تصوّت، أنا لما هاكبر هاخليها تصوت.

جاء اليوم الذى برح بهما الشوق واتفقا على اللقاء فى الغابة تحت شجرة توت وارفة تنوء بثمارها البيضاء.

يوسف رغم التحذير الذى يعلمه ونعلمه، "كنا نستمع إليه كل ساعة" يتسلل فى ساعة القيلولة إلى الطريق الزراعى المؤدى إلى طريق التوت، والذى ينتهى بـ"ست الأشجار". نام على بطنه بعد أن رفع فانلته إلى عنقه ثم دلاها فى ماء الجدول وشرب من خلالها.. مياه الجداول طاهرة تماماً كماء البحيرة. لاحظ والده يقسم عليها، مرر أصابعه خلالها وأقسم: وحياتك يا دى الملاك الطاهر.

والمدرس فى المدرسة القديمة "كان يبيت بها"، قال، وهو يصدقه: كل ما ترونه من ماء هو ماء النيل الطاهر، حتى القنوات والبحيرات.

– هو فيه بحيرات غير بحيرتنا؟

تأمل زهور البشنين. أوراقها الخضراء والبيضاء والصفراء متداخلة من دون قدرة على أن تميزها من بعضها حادة ومتكبرة.

خاض فى ماء الترعة بعد أن شمر بنطاله إلى أعلى الركبة، ومال إلى الأمام، وسحب زهرتين بساقيهما. "كان الساق مسنوداً من أسفل جراء نزعه من الطين".

يقطع عقلة من الساق من دون نزعها من اللحاء الخارجى، ويترك عقلة، وهكذا فى الساقين، ثم ربطهما بعد أن فتح الزهرتين على اتساعهما، وضعه فى عنقه فرعًا رائعًا هو زينة الفقراء.

وصلت العشيقة أولا، وهى تنتظر عشيقها. خرجت لبؤة من الدغل القريب والدم يتقاطر من فكيها بعد أن أكلت فريستها، هربت الفتاة تاركة شالها، الذى عبرت فوقه اللبؤة مخلفة قطرات من دم الفريسة على الشال.

حين اقترب يوسف من طريق التوت ينحنى بجذعه ويسير رويداً وهو يرقب الفلاحين يلوكون لقيماتهم المدهونة بالمش والعرق، يدخل إلى طريق التوت، يتسلل إلى أشجار البرتقال، يملأ جيوبه من ثمارها الحصرم، يلمح "ست الأشجار" فى نهاية الطريق سامقة لا أحد يعلم من غرسها، ولا كم عمرها. هى "ست الأشجار".

سيثبت أنه اعتلاها رغم تحذيرات الحكومة التى لا تملك إلا الشوارع وأعمدة الكهرباء والطائرات التى ترش القطن فى ميعاد التوت المستوى. سوف يكون مقنعا إذا اصطحب معه فرخًا من أفراخ الغراب الذى يعشش فى أعلاها، خلع صندله البلاستيك، والذى إذا جرى به على مظلة المدرسة يقلد صوت حدوة الحصان على الإسفلت.

يأتى العاشق ويرى شال حبيبته، يعتقد أن وحشا ما افترسها ولم يبق غير شالها كعلامة. جلس تحت شجرة التوت، واستل سيفه، وأغمده فى قلبه. نزفت دماؤه على جذر التوتة. تحول التوت الأبيض كالثلج إلى اللون الأحمر قليلا.

رغم قدم "ست الأشجار"، فإن توتها كالعسل المذاب، أوراقها عريضة ويانعة.

تمادى يوسف فى صعوده غير عابئ بالأفرع الصغيرة التى تخلف خطوطًا بيضاء فى ذراعيه وساقيه. اقترب من العش وقلبه يتراقص، إلا أن الغراب أطلق صرخة مهولة، ابتعد مسرعًا وتدلى إلى فرع بعيد، تساقطت بعض حبات البرتقال الحصرم من جيوبه، التقط بعض حبات التوت، التهمها "عسل مذاب"، وتساءل: لماذا تمنع الحكومة التى لا تملك إلا الشوارع وأعمدة الكهرباء والطائرات التى ترش القطن، أبناء القرية لمدة أسبوعين عن أن يأكلوا التوت؟

وهم محرومون من الفاكهة، لا يرونها إلا تصاوير فى الكتب وأصوات المدرسين لحظة تهجئة الأسماء؟

الأكيد.. الأكيد أن الحكومة لم تأكل التوت من قبل، ولم تجرب متعة تسلق الأفرع المتدلية على المصارف العميقة. لم تجرب ملء "الفوالات" بعد فرش قعرها بالأوراق الخضراء، ولم تدّع يومًا أنها أكثر من أصاب من ثماره، فتفرك الحبة المستوية على الفم والأيدى.

اعتدل على الفرع وابتسم لامتلاء الفروع.. كل الفروع بالثمار الناضجة، فلم يتجاسر أحد على تسلق أى شجرة توت.. أكل مستريحًا.

تعود الحبيبة إلى المكان فترى حبيبها يلفظ أنفاسه الأخيرة، عرفت منه ما حدث، التقطت سيفه، أغمدته بقلبها، سقطت بجواره، اختلط دمها بدمه، تلون التوت الأبيض كالثلج باللون القرمزى تخليداً للدم الطاهر وذكرى العشق، يفرغ جيبًا من جيوبه المليئة بالبرتقال ويحشوه بثمار التوت الناضج. جلس ساكنًا لبرهة، يشعر بشىء يدغدغه فى أمعائه، ينزل، يلبس الصندل على الأرض الطينية، فلا يحدث صوت الحصان المنطلق على الأسفلت، يرفع هامته ويطلق صفيرًا متناغمًا مع ما يستشعره من نشوة القنص والانتصار، لا يستطيع أى فلاح -أيًّا كان- أن يمنعه من أن يتجه ناحية القرية، ولما لم ينتبهوا إليه ألقى بحجر صوبهم، وهم قائلون على قش الأرز، تتبعه الشتائم، يرد بما تعود أن يصرح به:

- إنت يا أحمد يا غانم، مانتاش راجل مع مراتك.

تنفجر الضحكات من الفلاحين، وأحمد غانم -جن جنونه- يلقى عليه سيلا من الطوب:

- سمعتها وهى بتقول لك روح للحكيم؛ عالج نفسك.

وتتعالى الضحكات، ويوسف يروغ من الطوب بيسر.

يطمئن أن لا أحداً يتبعه، يتمهل. مغص فى بطنه، لكنه يشعر به دائمًا بعد التوت والجرى، يقطف زهورالبشنين، يبتسم لأن ساقه لم تنزلق إلى الترعة.. لم يقابل فى طريق عودته أحداً..

فى الليل تورمت ساقاه، وانتفخت بطنه، ومات.. يوسف مات..

حار أصحابه فى سبب موته، البعض أرجعها للجنيات الغاضبة من ترصده لها، والبعض يؤكد أن ماء الترعة مرشوش، إلا أن الذى ليس فيه شك أن أحداً لم يقترب من "ست الأشجار"، ولم يتذوق توتها العسل المذاب بعد يوسف..

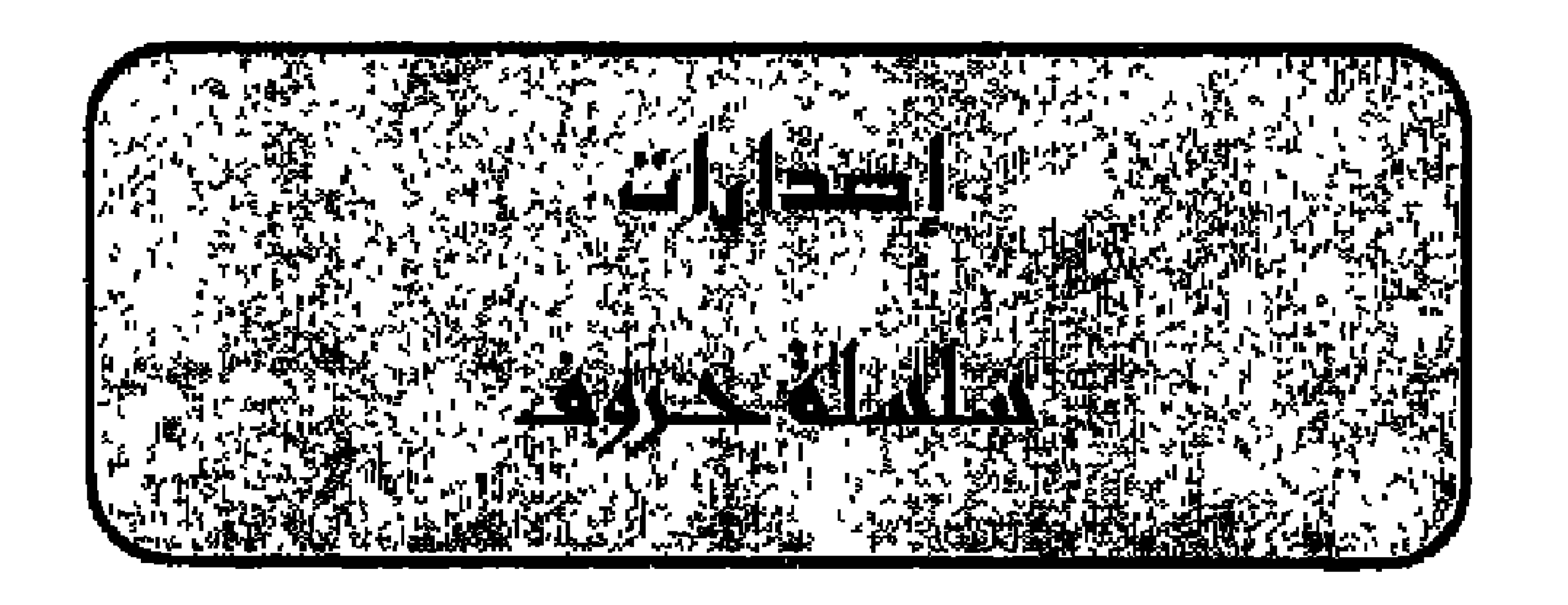
تحول التوت الأبيض إلى اللون القرمزى من دماء العاشقين.

ضعفت "ست الأشجار"، فلم تعد تطرح العسل المذاب، والحكومة التى لا تملك غير الشوارع وأعمدة الكهرباء والطائرات التى ترش القطن ما زالت ترش القطن، فيموت يوسف كل عام فى ميعاده.

المحتوى

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .



1- اليوم الذي.. بدأ .... عطية معبد

2- أو ما يشبه العشق........................ فدوى حسن

3- ناسي حاجة........................ السعيد المصرى

4- حكايات من بلاد البمبوزيا........................ محمود سيف الدين

5- أعمى بيقرا كتابه.. بتصرف........................ محمود الحلوانى

6- كتاب السطور الأربعة........................ حمدى الجزار

7- حبيبتى مروة........................ نصر عبد الرحمن

8- مسامرة جيدة لأرق طويل........................ عصام الزهيرى

9- نظرة تانية للملامح ع الخريطة........................ محمد ربيع محمد

10- فى المستقبل القريب جداً .... هشام محمود

11- للموت سُمْعَةٌ سيئةٌ .... سالم أبو شبانة

شركة الأمل للطباعة والنشر

(موراهيتلى سابقاً)

ت: 23904096 - 23952496



هذه المجموعة تدور معظم أحداثها فى
القرية.. هذا ويتمحور عالم الأقاصيص حول
عدة أفكار رئيسة، أهمها: (علىّ ألا أملك كى لا
أُمتلك) ؛ أو - (علىّ أن أحرر الآخرين كى
أتحرر).. أما عن طريقة السرد فيمكن للقارئ
أن يستشف من خلالها شخصية الكاتب المفعمة
بالحيوية وعشق الحياة، الممزوجة بمآسي
عفاريت الحكي في القرى البعيدة، المجموعة
تمتاز بلغتها الرشيقة وقدرة كاتبها على
امتلاك كافة خيوط السرد الذي نتذكر من
خلاله طريقة الأجداد في جلسات السمر.

الغلاف.... د. خالد سرور

Bibliotheca Alexandrina
12237482

الهيئة العامة لقصور الثقافة
حروف
www.gocp.gov
www.qatrelnada.com.e
www.althaqafahalgad...com.eg
www.odab...elaqaleem.com